فالصغيرة المدلّلة كانت في نحو السادسة عندما خطبها الرسول، ويوم بنى بها كانت حول العاشرة، دونها أو فوقها بقليل، وكِلاَ حدّي هذين العمرين يبيّن أنّها كانت تدرج بخُطىً قصار على طريق الاكتمال. * * * وكأنّي بزينب أيضاً حدّثتها نفسها ثانيةً أنّ الثانية: حفصة بنت عمر[991]، أرملة شابة، إن كان نصيبها من الفتوّة ظاهر فنصيبها من الجمال مقتور[992]. والحقائق دليل! الأب نفسه يشهد بهذا على ابنته، كما تنقل إلينا الأخبار، وهل ينبئك مثلُ خبير؟ قيل: علم ابن الخطّاب مرّةً من امرأته أنّ حفصة ـ في مسايرتها لعائشة، وتشبّهها بها ـ تراجع زوجها العظيم حتّى ليظل يومه غضبان، فأسرع إلى فتاته يزجرها على سلوكها هذا أعنف الزجر، ويشتدّ عليها في التثريب[993]، وخوّفها غضب الله لغضب رسوله إن لم تقلع وعاودت ما أتت من فعال، ثم قال: يا بنيّة! لا يغرّنّك هذه التي أعجبها حسنها، وحبّ رسول الله لها، والله لقد علمت أنّ الرسول لا يحبّك، ولولا أنا لطلّقك[994]! ولقّنها درساً لعلّها تعيه. * * * ثم كأنّي بزينب حدّثتها نفسها ثالثةً أنّ الثالثة: سَوْدَة بنت زمعة ليست سوى عجوز، عالية السنّ، ثقيلة الجسم، مضطربة المشية، عاطلة من الجمال، قد أسرع بها العمر نحو الشيخوخة وإنّها حينئذ لفي ثياب العروس! والحقائق دليل! «سَوْدَة» لا تنكر ما يعوزها، وما هي عليه، وتدرك ألاّ َ أرب لرجل فيها، ولا أرب لها في أيّ رجل من الرجال، فهي تعلم افتقارها للرواء، وإيغالها في الكهولة إلى أبعد مدىً أو أعمق غور، وبرودها العاطفي، وقصور غريزتها النسوية عن التلبية. ومن ثم فإنّها آثرت أن تنزل عن ليلتها مع النبي لعائشة ضرّتها الحسناء. ولكم أحزن الزوج الكريم أن يرى هذه السيّدة الطيّبة تعيش مع صويحباتها من زوجاته بكبرياء جريحة، وأن ترضى هكذا لأُنوثتها أن تُهدَر، فتتألّم وتصبر، وأن تشتري بهوانها على نفسها وعليهنّ جواره. فلولا الرحمة، لولا قلبه الكبير الذي يتّسع لآلام كلّ الناس، إذن لدفعته الشفقة